﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧﴾ [الإسراء: 37]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الانتقال مِنَ النّهي عنِ القول بلا علم، إلى بيان مسبّبات الجهل

لمّا كان الكِبْرُ والأَنَفة أعظمَ مانعٍ مِنَ العلم الدّاعي إلى كلّ خير، ومرضٍ بمرضِ الجهلِ الحاملِ على كلِّ شَرّ[1]، انتقل القرآنُ الكريم مِنَ النّهي عن أن يتّبِع الإنسانُ ما لا علمَ له به، إلى النّهي عنِ التّفاخر والتّكبّر والإعجاب في النّفس، فيقول: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَرَحًاۖ﴾: (مَرِحَ): أَصْلٌ يدُلُّ على مَسَرَّةٍ لا يَكادُ يَسْتَقِرُّ مَعَها طَرَبًا[3]، فالمَرَحُ شِدَّةُ الفَرَحِ والنَّشاطِ حَتَّى يجاوزَ قَدْرَه، والمَرح أيضًا: التَّبَخْتُر والاختيال، والمَرَحُ كذلك: الأَشَرُ والبَطَرُ، ومِنْه قَوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ٧٥﴾ [غافر: 75][4]، ومِنَ الباب: عَيْنٌ مِمْراحٌ: غَزيرَةُ الدَّمْعِ، وَكَذَلِكَ مَرَّحْتُ المَزادَةَ: مَلَأْتُها لِتَتَسَرَّبَ وَتَسيلَ، وَمَرْحَى: كَلِمَةُ تَعَجُّبٍ وَإِعْجابٍ، وَتقول العَرَب للرّامي إذا أصاب: مَرْحَى، فَإن أخطأ قالوا: بَرْحَى[5]، والمقصودُ بالمَرَحِ في الآية: الاختيالُ والتَّكبُّر، والمرادُ به: شِدَّةُ ازْدِهاءِ المَرْءِ وَفَرَحِه بِحالِه في عَظَمَةِ الرِّزْقِ[6].

2) ﴿تَخۡرِقَ﴾: (خَرَقَ): أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ قَطْعُ الشّيء وشَقُّهُ وَجَوْبُهُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 415.
(2) الطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 8/ 352.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (مرح).
(4) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (مرح).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (برح، مرح).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 103.

على سَبيلِ الفَسادِ مِنْ غَيْرِ تَدَبُّرٍ، ومِنْهُ قَولُهُ تَعالَى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: 71]، وَهوَ ضِدُّ الخَلْقِ[1]، والخَرْقُ: الثَّقْبُ، يُقال: خَرَقَ الجدارَ: إذا ثَقَبَهُ، والخَرْقاءُ مِنَ الشّياهِ وغَيْرِها: المَثْقوبَةُ الأُذُنِ[2]، ويأْتي الخَرْقُ بِمعنى المُرورِ والدُّخولِ في الشَّيْءِ، فَيُقالُ: خَرَقْتُ الأَرْضَ، أَيْ: جُبْتُها، واخْتَرَقَتِ الرّيحُ الأَرْضَ، إذا جابَتْها[3]، ويأْتي بِمعنى التَّحَيُّرِ والدَّهْشِ، فيُقال: خَرَقَ الغَزالَ: إذا طافَ به الصَّيّادُ فَدَهِشَ ولَصِقَ بِالأَرْضِ[4]، والمراد بالخَرْقِ في الآية: قَطْعُ الشَّيْءِ والفَصْلُ بَيْنَ الأَديمِ، فَخَرْقُ الأَرْضِ تَمْزيقُ قِشْرِ التُّرابِ، والمَقْصودُ مِنْهُ: التّهكّمُ والتَّشْنيعُ بِهَذا الفِعْلِ[5].

3) ﴿تَبْلُغَ﴾: البلوغُ: مَصْدَرُ: بَلَغَ الشّيءُ يَبْلُغُ بُلوغًا وَبَلاغًا، وَمَعْناهُ: لُحوقُ الشَّيْءِ والوُصولُ إليْهِ أَوْ المُشارَفَةُ عَلَيْهِ، يُقالُ: بَلَغْتُ المَكانَ بُلوغًا، أي: وَصَلْتُ إِلَيْهِ، وَكَذلِكَ إذا شارَفْتُ عَلَيْهِ[6]، والبُلوغُ مَجازٌ مَشْهورٌ في الحُصولِ على المُرادِ، والبُلْغَةُ: ما يُتَبَلَّغُ بِهِ مِنَ العَيْشِ، زادَ الأَزهريّ: وَلا فَضْلَ فيهِ، وتَبَلَّغَ بِكَذا، أي: اكتفى بِهِ[7]، والمقصود بالبلوغ في الآية: الوصول، أي: لن تَصِلَ بتطاولِكَ وتمايُلِكَ وفَخْرِكَ وإعجابك بنَفْسِك إلى قِمَمِ الجبال، وهذا تهكُّمٌ بالمُتكبِّرِ والمُخْتالِ.

4) ﴿طُولًا﴾: أصلُ (طَوَلَ) يَدُلُّ عَلَى فَضْلٍ وامْتِدادٍ في الشَّيْءِ[8]، فالطّوْلُ: نَقيضُ القِصَرِ في النّاسِ وغيرِهِم مِنَ الحَيَوانِ والمَوات، ويُقالُ لِلشَّيْءِ الطَّويلِ: طالَ يَطولُ طوْلًا، فَهوَ طَويلٌ وطوالٌ[9]، وهو أيضًا خِلافُ العَرْضِ، وطالَ الشّيءُ، أَي: امتدَّ[10]، ويأْتي الطَّوْلُ بِمعنى الغِنَى وسَعَةِ المالِ والفَضْلِ، ومنه سُمّيَت القُدْرَةُ على الصَّداقِ طَوْلًا؛ لأَنَّه إذا قَدِرَ على صَداقِها فقد طالَ عليها وزادَ[11]، والمقصود بالطّوْلِ في الآية: التَّطاولُ والارتفاع، أي: لا تَقْدِر أن تُطاوِلَ الجبال، وتُساويها بِكِبْرِكَ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خرق).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خرق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خرق).
(4) البندنيجيّ، التقفية في اللّغة، ص: 603، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (خرق).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 104.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم: (بلغ).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بلغ).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طول).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (طول).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (طول).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (طول).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

النَّهيُ عنِ الخُيلاء وتحريمُه، والأمرُ بالتَّواضع والخَضُّ عليه

ينهَى اللَّهُ سبحانه عنِ التَّفاخرِ والتَّكبُّرِ والإعجابِ بالنَّفْسِ، فيقولُ: ولا تَمْشِ في الأرضِ مُختالًا مُتبَختِرًا مُتمايلًا مُتَكبِّرًا، كمشيَةِ الجبّارينَ، إنَّك - أيُّها المُتكَبِّرُ المُتعاظِمُ في مَشْيِه - لن تَثقُبَ الأرضَ بشِدَّة وطْءِ قَدَميك عند اختيالِك في مَشْيِكَ، ولن يَبلُغَ طولُك - بتطاوُلِ بَدَنِك للأعلى في مِشيَتِك - طولَ الجبالِ؛ فما الَّذي يُغْريك بهذه المشيةِ، وقُدرَتُكَ لا تَبلُغُ بِكَ هذا المَبلَغَ؟! فَتَواضَعْ ولا تتكَبَّرْ، واعرِفْ قَدْرَ ضَعْفِك وعَجْزِك؛ فأنتَ مَحصورٌ بين جَمادَينِ لا تَقدِرُ على التَّأثيرِ فيهما؛ الأرضِ التي تحتَكَ، والجِبالِ الشّامِخةِ مِن فَوقِك[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ الوصل في قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾:

التَّحذيرُ مِن سُلوك سبيل الكِبر والخُيلاء، بعد التَّحذير مِن تقليد الغير بغير علم

في هذه الآية الكريمة نَهيٌ عن خصلة من خصال الجاهليَّة، وهي الكبرياء، فقد كان أهل الجاهليَّة يتعمَّدونها، وهذه الوصية الخامسةَ عشرةَ[2]، وفي وصل هذه الجملة بما سبقها: تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ نتيجةَ مخالفةِ النّهي السّابق: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أنْ يصيرَ حالُ المخالِفِ كحالِ مَن يمشي في الأرضِ مَرَحًا؛ وإذا اتَّبَع الإنسانُ ما له به عِلْمٌ عرَفَ قَدْرَ نفسِه سلبًا وإيجابًا، ومَن عرَف نفسَه فقد عرَف ربَّه، فالنّهيُ في هذه الآيةِ كالنتيجةِ لما قبلَه؛ فبينهما مِنَ التّوكيدِ ما ترى.

توجيه الخطاب وسِرّ إفراده:

ليتناول كلّ فَرْد مِنَ الجماعة الواحدة

كان الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ لغير معيّن؛ ليَعُمَّ كُلَّ مخاطب، وليس خطابًا للنّبيّ ﷺ؛ إذ لا يُناسِبُ ما

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 597، والواحديّ، الوجيز، ص: 635، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 75، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/ 156، 157.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 103.

بعدَه[1]، ومِمّا يُلحظ في هذه الأوامر والنَّواهي: أنَّ الأمور التي يُكلَّف بها كُلُّ فَرْدٍ بصفته الفَرديَّة جاء الأمر أو النَّهي فيها بصيغة المُفرد؛ أمّا الأمور التي تُناط بالجماعة فقد جاء الأمرُ أو النَّهي فيها بصيغة الجمع، ففي الإحسان للوالدين وإيتاء ذي القُربى والمسكين وابن السَّبيل، وعدم التَّبذير، والتَّوسُّط في الإنفاق بينَ البُخل والسَّرف، وفي التَّثَبُّت مِنَ الحَقّ والنّهي عنِ الخُيلاء والكِبر، جاء غالبُ الأمر أو النَّهي فيها بصيغة المُفرد؛ لما لها مِن صبغة فرديَّة، وفي النَّهي عن قتل الأولاد وعنِ الزِّنى وعن قتل النَّفس، والأمر برعاية مال اليتيم والوفاء بالعهد، وإيفاء الكيل والميزان؛ جاء غالبُ الأمر أو النَّهي فيها بصيغة الجمع، لما لها مِن صبغة جماعيَّة.

دلالة التَّقييد بـ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

زيادةِ تقرير معنى النّهي، والتّذكيرُ بما يُنفِّرُ مِنَ المَنهيّ عنه

قولُه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ فيه التَّقييدُ بـ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على خلافِ الظّاهرِ؛ لأنَّ المَشيَ إنما يكونُ على الأرضِ؛ وذلك "لزيادةِ التَّقرير، والإشعارِ بأنَّ المَشيَ عليها ممّا لا يَليقُ بالمَرح"[2]؛ لأنَّه جزءٌ منها، فكأنَّه قيل: لا تمشِ فيما هو عنصرُكَ الغالبُ عليك، الذي خُلقت منه وإليه تعود، والذي قد ضَمَّ مِن أمثالك كثيرًا، فمَن كان كذلك كان جديرًا به أن يتواضع لا أن يتكبَّر، قال تعالى: ﴿*مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝﴾ [طه: 55][3]، فالتَّقييدُ بالجارِّ والمَجرورِ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ للتَّذكير بالمَبدأ والمَعاد، المانِعَين مِنَ الكبر والخُيَلاء.

دلالة التَّعريف في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

الدّلالة على عموم البقاع، وأنَّ النَّهيَ مُتوجِّه إلى الماشي في سائر نواحيها

في تعريفِ كلمة ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ تنصيصٌ على أنَّ النَّهيَ عنِ المَشي مَرحًا في سائر البقاع

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 103.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 172.
(3) الطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 8/ 352.

والأماكن، لا تختَصّ به أرضٌ دونَ أرض[1]، وهذا إبلاغٌ في النّهي، وبيانُ سعةِ زمانه ومكانه.

دلالة التّعبير بـ: ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

تـذكـير بـالمَـبـدأ والمـعـاد، وأنّ الإنسان هو ابنٌ لهذه الأرضِ

الإنسانُ إنّما يمشي على الأرضِ لا فيها؛ بدلالةِ (على) على الاستعلاءِ على الشّيءِ حِسًّا أو حُكمًا، ودلالةِ ﴿فِي﴾ على الظّرفيّة كذلك؛ ففي التّعبيرِ بـ: ﴿فِي﴾ الإبلاغُ في إنكارِ المَشي على الأرضِ مرحًا؛ بالإيماءِ إلى أنّه ابنٌ لهذه الأرضِ، فهو مخلوقٌ منها، وإليه مآلُه؛ أي: بالتّذكير بالمبدأ والمعاد، وهو أردع عنِ المّشي مِشْيَة الفاخِر المُتكبّر، وأدعى لقبول الموعظة؛ كأنّه قيل: لا تمشِ فيما هو عنصرك الغالبُ عليك، الذي خُلقتَ منه، وإليه تعود، والذي قد ضمّ مِن أمثالك كثيرًا، مِشْيةَ الفاخِر المُتكبّر[2].

سِرُّ التّعبيرِ بالمَرَح دونَ الفَرح:

المَـــرحُ مـحَـلّ الـنّـهـي؛ ففيه شِدّة ازدهاءِ المَرءِ واختيالِه وفَرحِه بحاله

المَرحُ في الأصل: شِدّةُ الفرح، والتّوسُّع فيه[3]، مع الخُيلاء والتّعالي على النّاس، يُقال: مَرَحَ يَمْرَحُ مرحًا، إذا اشتدَّ فرحُهُ ومشى مشيةَ المُتكبّرين، ففيه معنى شِدّةِ ازدهاء المَرء وفَرحِه بحاله[4]، فكأنّه ضُمِّن معنى الاختيال، لأنّ غلبة السُّرور والفرح يصحبُها التّكبّرُ والاختيال[5].

الموقع الإعرابي لكلمة ﴿مَرَحًا﴾، وتوجيه المعنى عليه:

الـحـمـلُ على المـصـدر دونَ تـأويـلٍ باسم الـفـاعـل هـو الأبلغ

قولُه تعالى: ﴿مَرَحًا﴾ مصدر، ويجوز لغةً أن يُحْمَلَ على ذلك، وأنْ يُؤوَّل باسم فاعل، وذلك نحوُ أن تقول: جاء زيدٌ ركضًا وراكضًا، فـ: (ركضًا) أوكد؛ لأنّه يدُلُّ على توكيد الفعل[6]، وحملُه على

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 73، وهذه الدلالةُ أوردها الآلوسيّ في سياق بحثِه في بلاغة التّقييد بـ: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ولم يستلطفها عِلّةً لهذا التّقييد.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 73.

(3) الرّاغب، المفردات: (مرح).

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 103، والطّنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 352.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 49.

(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 342.

المصدر أحسنُ سياقًا وأَوكدُ؛ فالمراد منه ألّا يمشيَ الإنسانُ مشيًا يدُلُّ على الكبرياء والعظمة، أي: لا تَمْشِ في الأرض مُختالًا فخورًا؛ لأنَّ المصدر إنّما يكون آكَدَ للاتّصاف إذا تُرك على حاله، كما في: (رجلٌ عَدْلٌ)[1]، وموقع لفظ ﴿مَرَحًا﴾ الإعرابيّ أنَّها مصدر وقع حالًا مِن ضمير ﴿تَمْشِ﴾، ومجيء المصدر حالًا كمجيئه صفة؛ يُراد منه المبالغة في الاتّصاف، وعلى تأويله باسم الفاعل يكون المعنى: لا تمشِ (مارحًا)، أي: مشيَة المارحِ، وهي المشيَةُ الدّالَّةُ على كبرياء الماشي بتمايل وتَبَخْتُرٍ[2]، لأنَّ مَن مشى مُختالًا يمشي مرَّة على عقبه ومرَّة على صدور قدميه، فقيل له: إنَّك لن تنقبَ الأرضَ إن مشيتَ على عقبَيكَ، ولن تبلغ الجبالَ طولًا إن مشيت على صُدور قدمَيك[3].

دلالة المَجاز العقليّ في إسناد المرح إلى المشيِّ:

على القول بأنَّ ﴿مَرَحًا﴾ مفعولٌ مطلق مُبيّنٌ لفعل ﴿تَمْشِ﴾؛ لأنَّ للمشي أنواعًا، منها: ما يَدُلُّ على أنَّ صاحبه ذو مَرَحٍ: فإسنادُ المَرحِ إلى المشي على هذا المعنى مجازٌ عقليٌّ[4]، وفي هذا المجاز مِنَ التّنفير والتّبغيضِ مِنَ المنهيّ عنه ما فيه؛ فهو يعودُ على النّهي بالوَكادة والتّحقيق.

الدّلالة على حال صاحب المَرح وصفته، وتنفيره مِن حاله

دلالةُ النَّهيِّ على الأمر بِضِدِّه:

ليس النَّهيُ في الآية الكريمة عن المَشي نفسه؛ إنمّا النَّهيُ عن المَشي المَرح، فمناطُ النّهي هو: ﴿مَرَحًا﴾، ثُمَّ النَّهي عن الشيء يوجِبُ الأمر ضِدَّه، وهاهنا نهيٌ عنِ المَرح؛ فيكون أمرًا بالتَّواضع الذي وُصِفَ به عبادُ الرَّحمن: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفُرقان: 63][5]، فأمرَ اللّه تعالى بالتَّواضع، وذلك التَّطامن والتَّواضع

الأمر بالتّواضع والتَّطامُن من خلال ترذيل المَرحِ والخُيلاء

(1) شيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 5/ 385.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 103.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 3/ 130، والبغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 133.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 103.
(5) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 47.

الذي يدعو إليه القرآنُ بترذيل المَرح والخُيلاء، أدبٌ معَ الله، وأدبٌ مع النّاس، أدبٌ نفسيّ وأدب اجتماعيّ، وما يترك هذا الأدبَ إلى الخُيلاء والعُجب إلّا فارغٌ صغيرُ القلب، صغيرُ الاهتمامات، يكرهه اللّهُ لبَطَره ونسيان نعمتِه، ويكرهُه النّاسُ لانتفاشه وتعاليه[1]، ودلالةُ النّهي على الأمر بضدِّه مِن ضروبِ الإيجازِ القرآنيِّ.

سِرُّ الفصل في جملة: ﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾:

جملة: ﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ استئنافٌ ناشِئٌ عن النَّهي، بتوجيه خطاب ثان في هذا المعنى على سبيل التَّهكُّم، أي: إنَّك أيُّها الماشي مرحًا لا تخرق بمشيكَ أديمَ الأرض، ولا تبلغ بتطاولِك في مشيك طولَ الجبال، فماذا يُغريك بهذه المِشية[2]، فهي جملة تعليليَّة، جاءت تعليلًا للنَّهي السّابق[3] فلهذا فُصِلت.

تعليل النَّهي السَّابق بتوجيه خطاب ثان في هذا المعنى على سبيل التَّهكُّم

دلالة التّعبير بالخرق:

المُراد مِنَ الخَرق هاهُنا: نقبُ الأرض، والمعنى: لن تجعل فيها خَرقًا ونَقبًا بدوسِكَ لها، وشِدَّةِ وطأتِك[4]؛ لأنَّ المُتَكَبِّرَ يضرب الأرض برجليه اعتزازًا واهتزازًا، فالإنسان بجسمه ضئيلٌ هزيل، لا يبلغ شيئًا مِنَ الأجسام الضّخمة التي خلقها اللّهُ، إنّما هو قويٌّ بقوَّة اللّهِ، عزيزٌ بعِزّةِ الله، كريمٌ بروحه الذي نفخَهُ اللّهُ فيه، ليتّصلَ به ويراقبَه ولا ينساه، فمهما فعلتَ أيُّها المُختال فلن تَشُقّ الأرضَ، ولن تثقبَها بمشيكَ عليها حتّى تبلغَ آخِرَها[5]، وهذا ينطوي على اتصافِه بغاية الضّعفِ والخِفَّةِ والحَقارةِ، قال البقاعيُّ: "﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: تقطعَها سيرًا مِن مكانك إلى طرفها"[6]، وعلى هذا:

ضَعفُ المُتكبّر المُختال وخِفَّتُه وحَقارتُه والتّهكّمُ به

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 260، وشحاتة، تفسير القرآن الكريم: 15/ 2859.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 103.
(3) الدَّرويش، إعراب القرآن الكريم: 5/ 435.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 5/ 159، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 46.
(5) الجزائريّ، أيسر التَّفاسير: 3/ 194 والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 16/ 111.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 381.

ففي التّعبير بالخَرْق تَهَكّمٌ به؛ لأنّ عدم خَرْقِه إيّاها معنى معلومٌ، ولكنَّ حالَه السّيّئةَ قدِ استدعَتْ ذلك.

بلاغة ذِكْرِ الأرضِ في قوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾:

المُتكبّر المُختال كأنّه يُفاخِر الأرضَ ويَتكبّر عليها

معْقِدُ المعنى وأُمُّه في جملة: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ هو كلمةُ: ﴿ٱلْأَرْضَ﴾؛ لأنّها العنصرُ الأقربُ إلى حقيقة المُحَدَّث عنه؛ وقد قام عليها خطابُه مِن أوّلِ الآية: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾، فهي الطّرفُ الأوّلُ لحَرَكة المعنى في الآية، والطّرفُ الثّاني المُقابِلُ لها هو الجبالُ، وذِكْرُ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ في هذه الجملةِ يُؤدّي شيئًا جديدًا مِن المعنى في حركتِه في الآية؛ وهو التّهَكّم والسّخريَةُ وما جرى في هذا الطّريقِ مِنَ المعنى؛ برميه بالغَباوَة، قال أبو السّعود: "﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ تعليلٌ للنّهي، وفيه تَهَكُّمٌ بالمُختال، وإيذانٌ بأنّ ذلك مفاخَرة مع الأرض، وتكبُّرٌ عليها، أي: لن تخرق الأرضَ بدوسك وشِدّةِ وطأتِك"[1].

غرضُ إظهار لفظ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ المكرَّر في موضع الإضمار:

زيادةُ الإيقاظ والتّقريع والتّهكُّم، والتّقريرُ بإجرائها مجرى المثل

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ الإظهارَ على الإضمار في قوله: ﴿لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾، حيثُ لم يقل: لن تخرقها؛ لزيادة الإيقاظ والتّقريع[2]، وليكون هذا الكلامُ مُستقِلًّا عن غيره، جاريًا مَجرى المثل[3]، ولتكونَ دلالةُ ذِكْر: ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ أقوى وأظهر.

دلالةُ ذِكْرِ قولِه: ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾:

بيانُ تمامِ عَجْزِ الإنسان بين ما هو تحتَه وما هو فوقَه

ذكَر اللّهُ تعالى معنى جملة الجبال بعد ذكر معنى جملة الأرض؛ لبيان تمام عجزِ الإنسان؛ بذكر ما هو فوقَه بعد ذِكْر ما هو تحتَه، فالمعنى: أنتَ أيُّها المُتكبّر المُختالُ، ضَعيفٌ حقيرٌ عاجزٌ محصورٌ بين جمادَين! أنتَ عاجز عنِ التَّأثير فيهما، فالأرضُ التي تحتَكَ لا تَقْدِر

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 428.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 74.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 104.

أن تُؤَثّر فيها؛ فتخرقَها بشِدّة وَطْئِكَ عليها، والجبالُ الشّامخة فوقَكَ لا يبلغ طولُكَ طولَها، فاعرِف قدرَكَ!، ولا تتكبَّر، ولا تَمْشِ في الأرض مرحًا[1]، وفي ذكر هذه الجملة أيضًا: "تعريضٌ بما عليه المُختالُ مِن رفع رأسِهِ ومشيِه على صُدورِ قَدَميه"[2].

بلاغة التّعبير بأداة النّفي ﴿لَن﴾:

مبالغةً في التّهكّم بالمُتكَبِّر المُختال

في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ كان بالإمكان التّعبيرُ بأداة نفي غير ﴿لَن﴾ كـ: (لا)؛ لتُؤدّي المعنى على الجملة، فتقرير المعنى لا يحتاج إلى هذا الحسم والجَزم والقطع الذي في ﴿لَن﴾؛ لأنّه معنًى معلوم؛ ولكنْ عُبِّر بها؛ للمبالغة في التّهكّم بالمُحَدّث عنه، ولتصويرِ عِظَمِ شناعةِ الحال التي هو فيها وعليها مِنَ المَرَح السَّيِّئ؛ لكونه في حالة غفلة شديدة؛ ممّا يحتاج معها إلى شِدّة إيقاظٍ وتنبيه، فعَبَّرَ سبحانه بـ ﴿لَن﴾ إحسانًا إليه، والسّورةُ سورةُ الإحسانِ.

بلاغة ترتيبِ الجملتين:

وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾:

﴿ٱلْأَرْضَ﴾: هي جوهرُ حركةِ المعنى في الآيةِ كلّها، وهذا ظاهر في الجملة الأولى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾، والثّانية: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾؛ لذِكْرِ كلمة: ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ فيهما، وهو خفيٌّ في الجملة الثّالثة: ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾؛ لعدم ذِكرِها صراحةً فيها، وبالتّأمّل نفهم أنّ الجملة الثّالثةَ مِن تمام الجملة الثّانية، والمعنى: أنّ المُحَدَّثَ عنه عاجزٌ في قُدْرَتِه وعِلْمِه عنِ السّيرِ على جميع الأرضِ عَرْضًا وأوتادًا، مِن مكانه إلى طرفها، فالجبالُ "بعضُ أجزاءِ الأرضِ"[3]،

(1) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/ 431.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 428.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 428.

والسّيرُ على الأرضِ أسهلُ مِن السّيرِ على الجبالِ أو فيها، والتَّرَقّي مِنَ الأدنى إلى الأعلى في تقرير المعنى هو الأصلُ، وهو المناسبُ هنا لحال المُحَدّث عنه الغافلِ؛ لأنّه يُحَقّق له فائدةَ الإقناعِ والاستدلالِ، بالتّرقّي مِنَ السّهل إلى الصّعب، وأُخِّرَتِ الجملةُ الثالثةُ أيضًا؛ ليتحقَّقَ للآيةِ فنُّ تشابهِ الأطراف.

بلاغةُ رجوعِ آخِرِ الآية إلى أوّلها:

تشابهُ الأطراف في الآية لطيف

مِن وجوه البلاغة والتّناسُبِ في الآية: أن يرجع آخِرُها إلى أوّلِها رجوعًا معنويًّا، كما فهِمَه البلاغيّون المُتأخّرون، وهو هنا خَفيٌّ؛ فإنّ ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾ التي هي رمزٌ للطّولِ والعُلوِّ، ترجعُ إلى المرحِ في قولِه: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا﴾، والمرحُ يكونُ مع شِدّة الفرحِ والخيلاءِ والتّكبُّر، وغير ذلك، وهذا مِن بديعِ التّناسُبِ في الذّكر الحكيم.

سِرُّ اختيارِ خَرْق الأرض، وبلوغ الجبال:

الإشارة إلى المخلوقات القويّة العظيمة؛ مع كونها خاضعةً مُتواضعةً

ذكر القرآنُ خَرْقَ الأرضِ وبلوغَ الجبالِ طولًا؛ لأنَّ مِنَ الخلائق من يَخْرق الأرضَ ويدخلها، ويبلغ طول الجبال، وهم الملائكةُ، ثُمَّ لم يتكبّروا على اللّه، ولا تَعظّموا عليه، ولا على رسوله؛ بل خضعوا له؛ فمَن لم يبلغ في القوّة والشِّدَّة ذلك فهو أحرى أن يَخضع له، ويتواضع ولا يتكبر[1].

دلالة ذكر: ﴿طُولٗا﴾ على خِلاف الظّاهر، ودلالتها:

المبالغة في بيان معنى الجملة، وقصد الطُّول المُتكلَّف الذي يتكلَّفه المُختال

معنى: ﴿طُولٗا﴾ مستفادٌ مِن ذِكْرِ ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾؛ ففي النَّصِّ عليه إبلاغٌ في تقرير معنى النّفي في الجملة: ﴿وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾، وفي التّعريضِ المُستفاد مِن مجموع الجملةِ، وقد سبَق بيانُه، وقولُه: ﴿طُولٗا﴾ منصوب على التَّمييز؛ أي: لن يبلغ طولُكَ الجبالَ؛ أي: تطاولُكَ، واستعلاؤُكَ، ففي ذِكْرِه تمييزًا: إشارةٌ إلى الطّول المُتكلَّف

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 7/ 47.

الذي يتكلَّفه المُختال، وهو تَهَكُّم بالمُتكبّر، وتعليلٌ للنَّهي بأنَّ التَّكبُّرَ حماقةٌ مُجرَّدة، ولن ينال الإنسانُ بِكِبْرِهِ وتعظُّمِه شيئًا مِنَ الفائدة[1].

بلاغة حَمْلِ الآية على المَجاز بالاستعارة التّمثيليّة:

التّهكّمُ المقصودُ منه التشنيعُ بالفعل القبيح

مِن وجوه البلاغة في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ أنْ يكون مُستعملًا "في التَّغْليظ؛ بِتَنْزيلِ الماشي الواطِئِ الأَرْضَ بِشِدَّة، مَنْزِلَةَ مَنْ يَبْتَغي خَرْقَ وَجْهِ الأَرْضِ، وَتَنْزيلِهِ في تَطاوُلِهِ في مَشْيِهِ إِلَى أَعْلَى، مَنْزِلَةَ مَنْ يُريدُ أَنْ يَبْلُغَ طولَ الجِبالِ، والمَقْصودُ مِنَ التَّهَكُّم: التَّشْنيعُ بِهَذا الفِعْلِ؛ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ المَنْهيَّ عَنْهُ حَرامٌ؛ لِأَنَّهُ فَسادٌ في خُلُقِ صاحِبِهِ، وَسوءٌ في نيَّتِهِ، وإِهانَةٌ للنّاس؛ بِإِظْهار الشُّفوف عَلَيْهِمْ، وَإِرْهابِهِمْ بِقوَّتِه"[2]. "وفي هذا التّهكّم والتّقريع لمَن يعتاد هذه المِشية: كفايةٌ في الانزجار عنها"[3]، وفي لفظ المستعار منه: (الأرض، والجبال): ما يَشي بتحقيرِ المُستكبِرِ؛ فالأرض الّتي يمشي عليها أصلبُ مِن قوّته، والصّخورُ الجامِدَة المُكَدّسة جبالًا أطولُ مِن قامته، فلا يَزْعُمَنّ أنَّ شِدّة الوَطء، أو تطاولَ الجسم: يمنحانِه عِظَمًا حقيقيًّا.

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 5/ 159.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 104.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 461.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 28 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-25-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 28 : المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-25-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9844230 بتاريخ 2024/11/05م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»